صورة يسوع الطفل لدى مار أفرام

ترجمة مقال بقلم اللاهوتي بول رسل – كلية جبل القديسة مريم في ولاية ماريلاند في الولايات المتحدة العدد الأول من الجزء الخامس / كانون الثاني 2002 ، ونشرت في مجلة نجم المشرق، العدد 60، سنة 2009

الأب حبيب هرمز

مقدمة

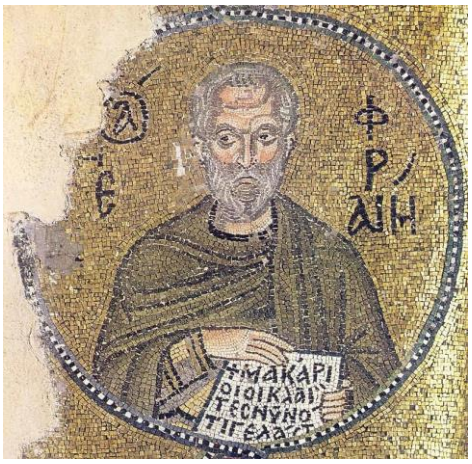

ربما قليلة هي البحوث او المقالات والتأملات عن يسوع الطفل، وكم هو مفيد التعمق في ذلك عندما يكون مصدر تأملنا هو اعظم آباء الكنيسة منذ القرن الرابع اي مار أفرام. وقد لفت انتباهي هذا البحث المنشور في مجلة *Hugoye* وهي مجلة تهتم بالدراسات السريانية الكترونياً تصدر مرتين سنوياً من قبل معهد بيث مردوثو.

يقول كاتب المقال إن مار أفرام استخدم صورة يسوع كطفل كي يعزز الإيمان بالتجسد. وهذا يتضمن التشديد على الجانب الإلهي والإنساني الكاملين. توضح المقالة ان الكلمة الإلهية بتجسده فقد انجذب الى الخبرة الإنسانية التي نشترك فيها جميعاً، وهذه اثرت على شكل التجسد الذي تم لأجل الخلاص الإنساني.

إن نظرة مار أفرام للتجسد لهي نظرة شاملة، تستخدم العناصر الشخصية والموضوعية للحياة الإنسانية والطبيعة.
(1)اللاهوت المسيحاني هو مجال من مجالات التعليم المسيحي خصوصاً في بعض المسائل الحاسمة كالإيمان بالتجسد أو بالصلب او بالآيات في الإنجيل. إن لاهوت المسيحانية هو واحد سواء أكان من جانب طبيعة يسوع الإلهية أو الإنسانية حيث يساعد في تحديد خطوط البحث اللاهوتي عن مسيحانية يسوع. لقد تم متابعة كتابات الآباء حول لاهوت يسوع الطفل والتي تعطينا فرصة رائعة تؤكد عدم وجود تناقض في طبيعتي المسيح ما دامت الطبيعة الإنسانية في مرحلة الطفولة سلبية ومعتمدة على الآخر. هذا يعني وجود تمييز بين طبيعة الخالق الموجودة في يسوع. الكاتب يبحث في فكر مار افرام بهذا الخصوص.

(2) بينما عدد من الكتاب خصوصاً في عصرنا يمرون بسرعة عند تأملهم في مرحلة الطفولة ليسوع نرى عبر التاريخ مواجهة تكشف عن قناعتهم الحقيقية. وقد اصبت بصدمة عند قراءة كتابات كيرلس الأسكندري حول ميلاد الرب:[1]

> لا نقول أبداً أن الجسد تحول الى الطبيعة الإلهية ولا طبيعة الله الكلمة قد تواضعت في طبيعة جسدية، ذلك لأنه غير متغير وغير متحول تماماً كما في الكتاب المقدس: لكننا نقول أن إبن الله، بينما هو مرئي للعيون وطفل وفي القماط ويرضع من ثدي أمه العذراء، كان له ذات طبيعة الله أبيه اللامتناهية واللامحدودة.

(3) هناك عدد قليل من الكتاب الذين كانوا واضحين مثل كيرلس، وقليل هم الذين عرفوا هذه الأفكار. إن استخدامه للتجاور (الرفقة) بين إلوهية وإنسانية الطفل يسوع هو كي يجعل التجسد تمييزاً بين الطبيعتين، ويظهر لنا كيف إن الطفل يسوع يساعدنا كنافذة يستطيع من خلالها اللاهوتي رؤية مشهد الإنجيل.
(4) ارغب في رؤية ما هي آثار هذا الموضوع في بناء المسيحانية لدى مار افرام، حيث سيظهر لنا قناعته المسيحانية وطريقته في التعبير عنها. ليس لدينا طرحاً محدداً له ولا نشيداً او عظة تركز على هذا الموضوع[2].

---

[1] رسالة كيرلس الإسكندري الثالثة الى نسطور، وهي صدى لنص لأنثاسيوس (نعتذر عن نشر التفاصيل لضيق المجال).
[2] إن عدد من المقاطع التي نناقشها تنتمي الى اناشيد الطفولة .

من خلال الكتابات التي وصلتنا، فإن مار أفرام يهتم بذكر الطفل يسوع ليدعم رأيه في مسألة أخرى. وبسبب تبعثر كتاباته حول الطفل يسوع فإنه يمكن تصنيفها تحت ثلاثة عناوين:

1 المقاطع التي تصف يسوع الطفل كإنسان.

2 المقاطع التي تصف يسوع الطفل كإله[3] .

3 المقاطع التي تركز مباشرة على المعنى اللاهوتي ليسوع الطفل.

من الجدير بالإشارة الى ان مار افرام يتحدث دائماً عن طفولة يسوع بطريقة لاهوتية مشيراً لصورة يسوع الطفل كجانب لاهوتي ذو وزن لا يمكن تجاهله.

الطفل يسوع كإنسان

هنا، صورة يسوع المسيح الطفل صارت اساس الحدث:[4]

رب داود وابن داود أخفى مجده في الأقمطة.
اقمطته وهبت رداء من المجد لبني البشر.

هنا الأقمطة اعطت معنيين: رب داود وابن داود. معنى حرفي سلبي للأقمطة المنقذة للطفل الرضيع من البرد، ومعنى رمزي ايجابي كونها استخدمت لتقميط الطفل الإلهي مخلص الجنس البشري. الطفل يسوع يظهر لنا مفارقة انقاذه لنا بطريقة واضحة وملفتة للنظر: الطبيعة الإلهية تهيء الطفل الإنساني لتخليصنا في وقت إن طبيعته الإنسانية واضحة. هنا مار افرام يجعلنا ننتبه الى التمييز بين الإنساني والإلهي في يسوع. كذلك الحال مع المقطع ادناه حيث يسوع في الهيكل وفقاً للوقا الفصل الخامس[5]:

لأن سمعان (الشيخ في الهيكل) كان قادرا على يحمل بين يديه الضعيفة من خلق الأشياء الزائلة. وقال، انه على علم بأن ضعفه قد تقوى بالقدرة التي حملها. في الوقت نفسه سمعان، مع جميع المخلوقات، رفع بقدرة الإبن. هذا مدهش، لأنه في حين، إن رجلاً ضعيفاً (يقصد سمعان) كان حاملاً القدرة (أي يسوع) التي منحته تلك القوة. تلك القدرة كانت تحمل حامله بطريقة غير مرئية. الجلالة جعلت ذاتها صغيرة كي يستطيع تحملها من يحملها.[6]

يظهر مار أفرام إن هذا التأمل في حاملها والذي صار صغيراً الى حد أن يحمل من قبل شمعون يحمل جانباً سلبياً للقدرة ومفارقة التجسد. ان مار أفرام يجلب انتباه القارئ ويركزه نحو صورة الإبن القوي تجاه العالم المخلوق؛ هويته كخالق وحامل (العالم) يجعل شمعون يختبر ذلك بحيث انه (اي شمعون) يسيطر على الموقف فيكون يسوع الطفل كمشجع له كما مع القماط في المذود. هذا المقطع يظهر مار افرام جريئاً في تفصيل مشهد الإنجيل فيبني فكرته اللاهوتية ومفارقته المتقاطعة.

ينبغي ان يكون واضحاً مدى فعالية اسلوب مار افرام التفسيري للمفكر الذي يختار نصوصاً كتابية بعناية. إن الفكرة اللاهوتية تنساب من وفي ذهن المصغي وتتكامل مع التفاصيل التي يستخدمها مار أفرام. بالتأكيد الكثير من جمهوره تتكرر تفسيراته في اذهانهم في المستقبل. ومن المعقول تصور قصد مار أفرام في جعل تفسيره يحل محل جزء من المشهد الكتابي في نفوس المستمعين.

---

[3] يحاول الكاتب التاكيد على إيمان مار أفرام بأن ليسوع طبيعتين إلهية وإنسانية

[4] أناشيد الولادة Hymns of the Nativity 5.4

[5] لوقا 2: 25- 35

[6] أناشيد في ربنا *Homily on Our Lord*, sec. 51

في المقطع التالي، يركز مار أفرام على جانب اكثر تجريداً عن الإبن المتجسد؛ وهويته ككلمة الله:

مبارك الطفل ضابط الجلالة بصمته. لأن الكلام الذي قيل قد اغضبه.[7]

فالخاصية غير الإعتيادية للطفل يسوع واضحة هنا بطريقتين: الأولى متعلقة بطبيعته الإنسانية والأخرى بالإلهية. إن طبيعته الإنسانية واضحة لدى مار أفرام. وإن صمته كان مقروناً بقدرة على الكلام مما جعل سامعيه الثرثارين في مأزق لأنهم أساؤوا قدرتهم الكلامية.[8] إن الطفل الصامت بصمته تمتع بنفوذ اكثر من الشيوخ الثرثارين. الطبيعة الإلهية ليسوع تختبر التجسد من خلال الدخول الى ذلك الصمت الذي بدأ عكس طبيعته كالكلمة.

هذا التناقض الظاهري للطفل الصامت مع الخلائق التي تتكلم، تخدم مار أفرام كي يقول للسامع إن تجسد الإبن هو كامل وصار واحد منّا؛ مصدر كل الكلمات والأفكار. والآن (هو) يجب ان يكون مصدر حديث كل مخلوقاته التي لا تسره دائماً. إن ولادة الإبن الإلهي كإنسان يحمل معه عدم الملائمة التي يجعلها مار أفرام دليل استحالة الحدث.

إن العمل الإلهي لأجل الطفل يسوع كما جاء في المقطع اعلاه عززه مار أفرام في المقطع الشعري أدناه، حيث يقول[9]:

الذي صار ملكاً وضع العار للشرير وظفر له اكليل الخداع.
مثل الله وضع عرشه على الأرض المأهولة
الطفل في المذود ازال عنه قدرته (اي قدرة إبليس).

إن ذكره للطفل في المذود هو تأكيد على تواضع يسوع ولكن مع ذلك، هذا الطفل قادر على ان يقضي على ادعاءات الشيطان دون الحاجة الى مغادرة المذود. الطفل المتواضع يعمل دورا إلهياً. فمن ليس له قوة جسدية، فإنه يمارس السلطة على الشرير؛ الشرير الذي يكافح البشر ضده دون جدوى. إن تفرد المسيح هذا تأكيد آخر على موضوع المفارقة.

إضافة الى ذلك، ان الإقتباس من الأناشيد في المهد (21. 10) والتي تظهر فكر مار أفرام عن يسوع كطفل رضيع بالمعنى الحرفي ومن حيث كونه طفلاً اصغر من ان يتكلم، هناك ايضاً مقاطع يتحدث فيها مار أفرام عن يسوع كطفل رضيع[10]، كطفل مفطوم[11]، والتي فيها يتحدث عن يسوع صغير البنية[12] وعلاقاته مع مريم بموازاة تلك التي بين حواء وآدم. إن هذه النقطة الأخيرة تحمل أهمية خاصّة، نظراً لأنه يظهر استعداده للنظر ليسوع بوصفه كائناً بشرياً، حيث يشارك في فئة من فئات البشر كعضو في الجنس البشري كما يوضح مار أفرام[13]

كان مبهجاً بين الأطفال الرضع كطفل رضيع؛ وربما كان لافتاً للنظر اكثر:
انظر يا رب يوسف المتواضع في قمط

---

[7] *Hymns on the Nativity* 21.10
[8] *Hymns on Faith* 15 discusses this theme, which is quite prominent in Ephrem.
[9] translation McVey 175, Syriac at 107
[10] *Hymns on the Nativity* 18.12, 161 in McVey, 93 in CSCO 186. Also, *Hymns on the Nativity* 4.149, 153, 184, 185, McVey pp 100 + 102, CSCO 186, 39 + 42.
[11] *Carmina Nisibena* 4.4, translation by Rev. J.T. Sarsfield Stopford, B.A. at 172 in NPNF (sec. ser.) Vol. 13 Grand Rapids, Michigan: Eerdmans Publishing Company 1989 (reprint). Syriac text, at 14 in *Des Heiligen Ephraem des Syrers Carmina Nisibena*, herausgegeben von Edmund Beck Louvain: CSCO 218 1961
[12] *Hymns on Faith* 32.14. Syriac text page 109 in *Des Heiligen Ephraem des Syrers Hymnen de Fide*, herausgegeben von Edmund Beck Louvain: CSCO 154 1955. Translation in Paul S. Russell, *Eighty Hymns on Faith of St. Ephraem the Syrian* forthcoming from Peeters Press: Louvain.
[13] *Hymns on the Nativity* 4.197, McVey 103, CSCO 186, 43, and *Hymns on Virginity* 32.4, 404 in McVey, 118 in CSCO 223

إن مار افرام لمستعد تماماً ليتصور يسوع طفلاً بين الأطفال، والتي هي على وجه التحديد جانباً من طفولته كمفكر في مدينة نيقية[14] الراغب في دعم فكرة يسوع كشخص بشري طبيعي. من المثير للإهتمام ان نرى إن مار أفرام لم يظهر اي علامات العثور على يسوع كطفل صغير لا تتناسب فكرته عنه عن حالة شخص متفرد بين البشر. إن هذه الدرجة من الإرتياح لجعل يسوع بين الأطفال كواحد منهم دفعت مار أفرام الى قبول وجهة نظر واسعة بخصوص مفهوم التجسد، منها أنها لا تقتصر على مسائل مثل "الطبيعة" و"الشخص" ولكن تمتد ايضاً الى تفاصيل إنسانية دنيوية.[15]

سيكون من الخطأ الإعتقاد إن نظرة الإختلاف في طبيعة يسوع محدودة المجال في ذهن مار أفرام. فبخصوص وجود طبيعتان كاملتان بشرية والهية، يحسب مار أفرام الخصائص البشرية ليسوع كبرهان لشخصيته الخاصّة. يتحدث مار أفرام في نصيبين عن الصفات الإنسانية الإستثنائية ليسوع كأنها حاضرة منذ ولادته:

حتى بينما كان رضيعاً، كان معلماً للصبيان، بسبب العظمة التي كان عليها... كان في طفولته مساعداً، لكل من رآه؛ كان نبياً معلماً لهم من اليوم الذي دخل في العالم، كان نصيراً للبشرية بواسطة أبيه.

وهناك جانبان ممتعان من جوانب هذه الصورة:

1- الصورة المسيحانية التي تشير بصراحة الى القدرة البشرية الإستثنائية ليسوع، تمنح حاملها مرونة لا تؤدي الى أية تقاطع إلهي/ إنساني، هو مفكر يحمل وجهة نظر نيقية، التي في حالة مواجهته مشكلة لاهوتية أو مقطع محيّر في الإنجيل، لا يترك خياراً صعباً بين شرح كيف إن صور يسوع في تلك الأيام كإبن إلهي او يسوع إنسان طبيعي. هو أيضاً رفع ذهنه ليقول ان يسوع يتمتع بخصائص عير اعتيادية، لذلك كانت لديه اختيارات اوسع ضمن ادوات اللاهوت المسيحاني.

2- إن الإيمان الكبير بيسوع وبقدراته الإنسانية غير الإعتيادية لهو دليل على ثقة مار افرام في امكانية التحدث بحرية عن انسانية يسوع دون التخلي عن وجود الطبيعة الإلهية. إنها دليل على حقيقة كون مار افرام لا يميل الى طبيعة على حساب أخرى. يبدو إن هذا الجمع بين الخصائص البشرية الدنيوية والخصائص الغير

---

[14] مدينة مسيحية قديمة على ساحل الأناضول الغربي اشتهرت بانها احتضنت مجمع نيقية للأساقفة في سنة 325، وكان مار افرام قد زارها.

[15] Some argued against the Council of Nicea by holding that the Son must be less than equal in Divinity to the Father because no fully Divine being could enter the created world. Defenders of Nicea sometimes chose to counter this by striving to protect the Divine Son while incarnate by limiting the degree to which He was said to be affected by contact with the world ["he was in the crucified flesh impassibly making his own the sufferings of his own flesh", as Cyril of Alexandria asserts in his *Third Letter to Nestorius* (Translation found at 351 in Hardy, *Christology*) or, more crudely, in Athanasius' extended treatment of the Incarnation and the scriptural passages illuminating it in his *Third Oration against the Arians*, sec. 31, where he notoriously used the metaphor of a worker and his tool to describe the relation of God the Son to His human nature: "...afterwards, for our sakes He became man, and 'bodily', as the Apostle says, the Godhead dwelt in the flesh; as much as to say, 'Being God, He had His own body, and using this as an instrument, He became man for our sakes.'" (trans. at 410 in NPNF IV, sec.ser.). Nicenes might also choose to stress the uniqueness among human beings of the relationship of the physical self (the humanity) of the Son to His spiritual self (the Divinity), as Athanasius does in his *On the Incarnation*: "For being himself mighty, and artificer of everything, he prepares the body in the virgin as a temple unto himself, and makes it his very own as an instrument, in it manifested, and in it dwelling." (Sec. 8, translation at 62-63 in Hardy, *Christology*)]. While none of these ideas necessarily diminishes what its author allows as far as the fullness of the Incarnation is concerned, I think that they are instructive as indicators of philosophical, theological and, possibly, devotional qualms about speaking of the Divine as taking Its place in the created realm. Against this backdrop of what seems, to me, to be quite general reluctance to place the incarnate Christ in the midst of ordinary human life, Ephrem's willingness to speak cheerfully of the ordinariness of the incarnate Christ's infancy makes me think that his acceptance of the idea of Incarnation has seeped very far down into his mind. This openness to intimacy between the Divine and the created world seems, to me, to argue for a level of comfort with incarnation that was quite unusual among early Christian authors whose works survive. (I would also place alongside this reluctance Arius' desire to protect the inviolability of the fully Divine Father and Nestorius' desire to keep ontological distance between the Divine Son and the human experiences of Jesus–though that is material for two monographs in itself and cannot be pursued here.)

عادية (الإلهية) هو بداية لثمار تفسير مجمع نيقية، ويقترب من هدف شرح قصص الإنجيل. إن نشاط مار أفرام الطويل كمعلق ومعلم واديب الكتاب المقدس ربما كان مصدرا لهذا الأفق المفتوح والواعي. إن الإشارات الى يسوع الطفل ليس مفصلة ومعظمها ليست محوراً لأعمال القديس، ولكن اعتقد (يقول الكاتب) إنها تصورات كافية لمار أفرام عن يسوع الطفل وهو يعيش حياته الإنسانية الطبيعية، على الأقل تعلقه بالخبرات. إن اندماج يسوع الطفل مع الأطفال كما يفعل مار أفرام يوضح ذلك. واعتقد إن ذكر يسوع في حضن مار يوسف يدل على درجة من الراحة مع يسوع الطفولة في زمن كان من غير الطبيعي لدى آباء العهد القديم. اما بخصوص يسوع في حضن مريم العذراء، فلن يكون لها تاثير ان يتم ذكر يسوع في حضن مار يوسف مرة واحدة مقابل مرات عديدة في حضن مريم العذراء. لقد أراد فقط ان يعطي للحالة حضورا اكثر مما هو مذكور في الإنجيل مع شمعون الشيخ.

وبالضد من خلفية هذه الحقيقة البشرية، علينا أن نتذكر تصور مار أفرام ليسوع الرضيع الصامت وحاكم المضيف السماوي والمولود في المذود والذي يقصي الشرير. إنه نفس الشخص الذي كان "كطفل رضيع بين الرضع" اي الإنسان الذي لا يستطيع التمتع بممارسة صلاحيات إلهية. إن النقيض من هاتين الصورتين تم تعميقه من قبل مار أفرام من خلال مساهمته في إسناد هاتين الفئتين من الفعل للطفل ذاته بدلا من أن فعل الطبائع المختلفة أو مجالات العمل للشخص نفسه. وبعبارة أخرى، فإن مار أفرام قد تحدث عن يسوع المسيح الطفل كإنسان بطريقة تهدف إلى زيادة التناقض اللغوي بخصوص التجسد بدلا من التقليل منها.

ان القراء المعتادين على قراءة اعمال مار لأفرام لن يفاجأوا بسبب هذا الاستنتاج.